

المنهج التجريبي عند ابن تيمية (728هـ) وأثره في بحوث المناطق الغربية

د بثينة الجلاصي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان - تونس

المقدمة

ليست الغاية من هذا العمل إجراء مقارنة بين فكر ابن تيمية وقراءته المنطق وتأكيد أهمية المنهج العلمي، وبين أفكار المناطق المحدثين وإضافاتهم في المنطق، فتلك قضية شائكة لا تخلو من مصاعب لعل أهمها إمكانية إسقاط فكر على فكر آخر أو بيان تأثيره دون الحصول على أدلة تثبت هذا التأثير، وهو ما من شأنه أن يخفي خلفيات تمجيدية أو تهجينية لابن تيمية أو للمناطق المحدثين تجعل من صاحبها متبنيا لأيدولوجيا معينة، فيخفت بذلك المنحى العلمي في عمله.

إن غايتنا من تخير هذا المشغل هي تبين وحدة التفكير الإنساني على مرّ العصور، وذلك من خلال الوقوف على الأسئلة والمباحث التي تردّت عند المفكرين بصرف النظر عن انتماءاتهم وأعرافهم وعصورهم وأجناسهم ومذاهبهم وأديانهم، وإن كنا لا ننكر أن لكلّ عصر مشاغله تلك التي تفرزها طبيعة المرحلة التاريخية وما تحثّمه من قضايا تتساق مع الفكر المنتج لها والنتاج عنها، إلا أن ذلك لا يمنع من التفكير في أمور باتت تتردّد في كلّ حقبة تاريخية وإن كانت الإجابة عنها مختلفة باختلاف الذهنية والمقام المحتضن لها. وفي هذا الإطار كان البحث عن خصائص المنهج التجريبي عند مفكر نسب إلى القرن الثامن للهجرة وعمل على تحصين موروثة الثقافي وخاصة الديني منه من خلال دعوته إلى التشبّث بالمنقول والاعتصام بالنصّ الشرعي ومحاولة

درء التعارض بينه وبين المعقول عسى أن نتبين صدى هذه المشاغل عند المناطقة المحدثين المنتمين إلى عصر النهضة العلميّة تلك التي عرفها الغرب بداية من القرن الثامن عشر ميلاديا.

I- المنهج التجريبي عند ابن تيميّة :

(1) مفهومه :

لم يتحدّث ابن تيميّة عن منهج تجريبيّ، وإنّما وردت في مصنّفه عبارات التجربة والتجريبيّات ضمن تصنيفه للمسالك التي يدرك بها العلم. وضمن ردّه على أرسطو وأتباعه في الإقرار بأهميّة القياس المنطقي القائم على البرهان، وفي أنّه الطريق الأسلم للعلم. وفي هذا الإطار يكون تعرّض ابن تيميّة لأهميّة التجربة في المعرفة مؤسسا على خلفيّة حاجيّة أعادت قراءة المنطق الأرسطي مستندة إلى سياق ميتافيزيقي، فحضرت المباحث الكلاميّة والتشريعيّة.

ويعرّف ابن تيميّة التجريبيّات بأنّها الأحكام الصادرة بدءًا من الحسّ الباطن أو الحدسيّات إلى الحسّ الظاهر لتتحوّل في النهاية من ملاحظات جزئيّة إلى أحكام كليّة يجمعها العقل، ويشكلها ضمن قوانين، ولا تكون هذه الملاحظات من الحسّ الباطن أو الظاهر عابرة، وإنّما وجب تكرّرها في عوالمها الممكنة سواء كانت ذهنيّة أو خارجيّة ليحصل العلم بأنّ الأسباب مرتبطة بنتائجها، يقول ابن تيميّة : "وأما الاعتقاد الكلّي القائم في النفس من أنّ هذا الجنس يحصل به اللذة، وهذا الجنس يحصل به الألم، فهذا من التجريبيّات، إذ الحسيّات الظاهرة والباطنة ليس فيها شيء كليّ، فالقضاء الكلّي الذي يقوم بالقلب هو مركّب من الحسّ والعقل، وهو التجريبيّات كما في اعتقاد حصول الشبع والريّ بما يعرف من المأكولات والمشروبات والموت والمرض بما يعرف من السّموم القتّالة والأسباب الممرضة، وزوال ذلك بالأسباب المعروفة وكلّ هذا من القضايا التجريبيّة، فالحسّ به تعرف الأمور المعيّنة، ثمّ إذا تكرّرت مرّة بعد مرّة أدرك العقل أنّ هذا بسبب القدر المشترك الكلّي، فقضى قضاءً كليّاً على أنّ هذا يورث اللذة الفلانيّة، وهذا يورث الألم الفلاني" (1).

(1) ابن تيميّة (نقيّ الدين) : الردّ على المنطقيين، مبحث الاستدلالات، تعليق رفيق العجم، دار الفكر اللبناني، ط. 1، 1993، ص. 125.

يبدو من خلال هذا النص أن ابن تيمية يولي أهمية كبرى للتجربة وقدرتها على تحصيل العلم. ذلك أن التجربة تخول ربط الأسباب بنتائجها من خلال فعل التكرار، فيصبح الأمر عادة ويكون استقراء النتائج أمرا آليا محكّم التجربة والتكرار.

إن ابن تيمية يربط المنهج التجريبي بعمل العقل إذ يقرّ بأنّ بينهما جدلية لأنّ التجربة تمكّن من ضبط الجزئيات وتقدّمها للعقل ليحكم عليها حكما كليّا من خلال الدليل، ذاك الذي يشترط فيه المناسبة والملاءمة يقول ابن تيمية : "إنّ التجربة إنّما دلّت على أشياء معيّنة، لم تدلّ على أمر عام، لكنّ العقل يعلم أنّ المناط هو القدر المشترك بما يعلمه من انتقاء ما سواه ومناسبته أولا يعلم مناسبته وهذا قد يكون معلوما تارة، كما يعلم أنّ أكل الخبز يشبع وشرب الماء يروي وأنّ السقمونيا مسهل للصقراء، وإن كان قد يتخلف الحكم لفوات شرطه إذ قدّمنا أنّ الطبيعيات التي هي العاديات ليس فيها كليّات لا تقبل التقصّ بحال" (1).

وعلى هذا الأساس يفند ابن تيمية الرأي القائل بإمكانية تغاضي العقل عن الجزئيات وحصوله مباشرة على الكليات، وأنّه يكفي استحضار النظائر من خلال القياس للحكم الكلي على ظاهرة واحدة، بل يعتبر أنّ مزية النظائر تتمثل في تقوية العلم من خلال تقريب الذهن إلى النتيجة، وفي هذا السياق تتدرج الأهداف الرئيسية للأقيسة يقول : "ولهذا هم يقولون إنّ العقل بحسب إحساسه بالجزئيات يدرك العقل بينها قدرا مشتركا كليّا. فالكليات في النفس تقع بعد معرفة الجزئيات المعيّنة فمعرفة الجزئيات المعيّنة من أعظم الأسباب في معرفة الكليات (...) وهذه خاصة العقل، فإنّ خاصّة العقل معرفته الكليات بتوسّط معرفته بالجزئيات فمن أنكرها أنكر خاصّة عقل الإنسان (...) وكلما كان تصوّر الإنسان النظائر قويّت معرفته بتلك الكلية، وهو أنّ الضدّ يهرب من ضده والنظير ينجذب إلى نظيره، وهذا معلوم في الطبيعيات والنفسيات وغيرهما، لكن إذا ذكرت النظائر قوي العلم بذلك" (2).

(1) الردّ على المنطقيين، ص. 109.

(2) نفسه، ص. 110.

إن أهمية التجربة عند ابن تيمية تنبع من مفهومه الخاص للعقل ثم للعلم باعتباره إنتاجا له، ذلك أنه يرى العقل ملكة تُعنى بتجريد الصور وتمثلها في الذهن فهي كليات ذهنية لا وجود لها في الخارج وإنما يسلط عليها العقل أحكامه الكلية فتصير قوانين لا تؤدي بالضرورة إلى اليقين، وهو يردّ بذلك على مفهوم العقل عند أرسطو الذي يرى أنه قسم من أقسام الجوهر الأربعة وهي العقل والنفس والمادة والصورة والخامس هو الجسم، وهذا الجوهر له وجود خارجي يثبت ويمثل دليلا على صحة كلياته، يقول ابن تيمية : "فجاء أرسطو وشيعته، فردّوا ذلك كله عليهم، ولكن أثبتوا هذه "المجردات" في الخارج مقارنة للأعيان، وفرّقوا بين الشيء الموجود في الخارج، وبين ماهيته الكلية المقارنة لأفرادها في الخارج كما ذكر ذلك ابن سينا وأمثاله وغلط هؤلاء في هذا وكذلك أثبتوا العقول العشرة وظنّوا وجودها في الخارج وهم غالطون في ذلك وأدلتهم عليها في غاية الفساد" (1).

فماخذ ابن تيمية على هذا المفهوم ينطلق من رفضه تجريد الظواهر قبل ملاحظتها وتفسيرها واستخلاص النتائج منها، وهي المقومات التي ينهض عليها المنهج التجريبي فلا يكون الحكم مُسقطا وخصوصا بأشخاص معينين وإنما يجب أن يكون حسب ابن تيمية حصيلة التجربة والتكرّر للذين يخولان الاستقراء والتمثيل فيحصل بذلك العلم يقول ابن تيمية : "والمقصود هنا أنّ ما يثبتونه من العقليات إذ حققت لم تكن إلا ما يثبت في عقل الإنسان، كالأمر الكلية، فإنّها عقلية مطابقة لأفرادها الموجودة في الخارج (...) ولهذا كان منتهى محققهم "الوجود المطلق" وهو الوجود المشترك بين الموجودات، وهذا إنّما يكون مطلقا في الأذهان لا في الأعيان (...) وغايتهم أنهم يجعلون في أنفسهم شيئا ويظنّون أنّ ذلك موجود في الخارج ولهذا تمدّهم الشياطين. فإنّ الشياطين تتصرّف في الخيال وتلقّي خيالات الناس أمورا لا حقيقة لها" (2).

وانطلاقا من ذلك فإنّ مفهوم العلم عند ابن تيمية يرتبط ارتباطا وثيقا بالتجربة، بل هو موقوف عليها، وهو بذلك يقيم منهجا آخر للعلم غير الذي أقرّه

(1) الردّ على المنطقيين، ص. 60.

(2) نفسه.

أرسطو وأتباعه إذ أنهم يحصرون العلم التصديقي في القياس المنطقي وليس في التجربة ويصرفون اهتمامهم إلى ما هو صوريّ كليّ ويغيّبون الحسّ، وفي هذا الإطار يندرج ردّ ابن تيميّة على القياس المنطقي ويعتبره غير مؤدّ بالضرورة إلى العلم لأنّه مقدّر في الأذهان وهذا التقدير من شأنه أن يغيّب الحسّ ويتعالى عن الواقع محكّ التجربة ومنطلق الأحكام ومنتهائها، وفي هذا الإطار أيضا نفهم إشادة ابن تيميّة بالقياس التمثيلي الذي يعتبر ألصق بواقع التجربة لأنّه ينطلق من الجزئيات ويبحث عن أوجه المشابهة بينها فيقرّب بذلك العلم بها ويقوّه وهو ما نفهمه من قوله : "فتبين أنّ قولهم "إنّ المطلوب لابدّ فيه من القياس، وذلك القياس يجب أن يكون المقياس المنطقي الشمولي، ولابدّ فيه من مقدّمتين" ليس بصواب، وهذا يبطل قولهم "لا علم تصديقيّ إلا بالقياس المنطقي الشمولي" كما تقدّم وأما هنا فالمقصود بيان قلة منفعة أو عدمها. وأما ما يستفاد من علومهم فالقضايا الكلية فيه إما منتقضة، وإما أنّها بمنزلة قياس التمثيل، وإما أنّها لا تفيد العلم بالموجودات المعيّنة، بل بالمقدّرات الذهنيّة كالحساب والهندسة : فإنّه وإن كان ذلك يتناول ما وجد على ذلك المقدار فدخل المعين فيه لا يعلم بالقياس، بل بالحسّ، فلم يكن القياس محصلا للمقصود" (1).

إنّ فضل ابن تيميّة من خلال إقرار المنهج التجريبي وتأكيد أهميّة التجربة في ارتباطها بمفهوم العلم وعمل العقل يكمن في النهاية في توسيع آفاق العلم والمعرفة وعدم حصرها في القياس المنطقي، بل يبيّن أنّ مصادر المعرفة تتجاوز القياس المنطقي لتشمل الحدسيّات والمتواترات والمشهورات والتجريبيّات والحسيّات، مع أنّه يجمع هذه المصادر المتنوّعة ضمن التجريبيّات ويقول : "وبالجملة الأمور العادية، سواء كان سبب العادة إرادة نفسانيّة أو قوّة طبيعيّة فالعلم بكونها كليّة هو من التجريبيّات أو الحدسيّات إن جعلت نوعا آخر، حتى العلم بمعاني اللغات هو من الحدسيّات، فإنّ الإنسان يسمع لفظ المتكلم، ثمّ قد يعلم مراده المعين بإشارة إليه أو بقرينة أخرى ثمّ إذا تكرّر تكلمه بذلك اللفظ مرّة بعد مرّة وهو يريد به ذلك المعنى علم أنّ هذه عادته الإراديّة، وهو إرادة هذا المعنى بهذا اللفظ إذا قصد إفهام المخاطب، وهذا ممّا يسمّونه الحدسيّات، إذ

(1) الردّ على المنطقيين، ص. 100.

ليس كلام المتكلم موقوفا على اختيار المستمع. وهو من التجريبيات العامة، فإنّ السمع، إنّما عرف به الصوت، والمعنى المعين قد يفهم أولا بأسباب متعدّدة" (1).

(2) خصائص المنهج التجريبي :

أ- التدرّج :

يرى ابن تيميّة أنّ أهميّة المنهج التجريبي تكمن في تدرّجه من الجزئيات وملاحظة أوجه الشّبه أو التّنافر بينها، ثمّ استخلاص النتائج الكلية بعد التفسير والتكرّر، فهذا المنهج يعتمد بالأساس إلى استقراء الظواهر وتنقيحها وتحقيقها وتخرجها، وبذلك تسلك هذه العمليّة مراحل متعدّدة من البحث والتقصّي عكس القياس المنطقي الذي ينطلق من مقدّمة كئيّة يطبقها على جزئيات دون أن يكون الجامع بينها صحيحا أو منسجما بين أجناسها وأنواعها، وإنما يتوقّف الأمر على حال المستدلّ وتأوّلّه للظواهر يقول ابن تيميّة : " وإن قيل إنّ الصورة النارية لا بدّ أن تشتمل على هذه القوّة، وأنّ ما لا قوّة فيه ليس بنار. فهذا الكلام إذا قيل إنّّه صحيح، قيل إنّّه لا يفيد الجزم بأنّ كلّ ما فيه هذه القوّة يحرق كلّ ما لاقاه، وإن كان هو الغالب، فهذا يشترك فيه قياس التمثيل والشمول والعادة والاستقراء الناقص. ومعلوم أنّ كلّ من قال "إنّ كلّ نار تحرق كلّ ما لاقته" فقد أخطأ. فإنّه لا بدّ من كون المحلّ قابلا للإحراق إذ قد علم أنّها لا تحرق كلّ شيء، كما لا تحرق السمندل والياقوت وكما لا تحرق الأجسام المطلية بأمور مصبوغة. وأمّا خرق العادة فمقام آخر" (2).

ب- الثبوتية :

يذهب ابن تيميّة إلى أنّ ارتباط المنهج التجريبي بالأعيان يدلّ على أنّ المعرفة محققة في الخارج وليس متعالية عليها، ممّا يجعلها ثابتة من خلال الحسّ المشترك بين الناس عكس الأقيسة المنطقية المرتبطة بالكليات والمقدّرة

(1) الردّ على المنطقيين، ص. 125.

(2) نفسه، ص. 53.

في الأذهان لأنها لا تتطلق من الخارج وإثما من قوانين وقواعد مجردة تسلطها على الخارج وتطوّعه لصالحها وهو ما يجعل هذه القوانين في حيز الإمكان الذهني إذ بإمكانها أن تتطابق مع الخارج في كامل جزئياته كما بإمكانها أن تخالفه فهي نسبية وإن حرص أرسطو وأتباعه على إقرار يقينياتها يقول ابن تيمية : "ومن هنا يغلط كثير ممن يسلك سبيلهم حيث يظنّ أنّ ما عنده من القضايا الكلية صحيح، ويكون عند التحقيق ليس كذلك وهم يتصورون الشيء بعقولهم ويكون ما تصوّروه معقولا بالعقل فيتكلمون عليه. ويظنون أنّهم تكلموا في ماهية مجردة بنفسها من حيث هي هي من غير أن تكون ثابتة في الخارج ولا في الذهن، فيقولون "الإنسان من حيث هو هو" و"الوجود من حيث هو هو" و"السواد من حيث هو هو" ويظنون أنّ هذه الماهية التي جرّدها عن جميع القيود السلبية والثبوتية محققة في الخارج على هذا التجريد. وذلك غلط كغلط أوليهم فيما جرّده من العدد والمثل الأفلاطونية وغيرها. بل هذه المجردات المسلوب عنها كلّ قيد ثبوتي وسلبى لا تكون إلا مقدرة في الذهن" (1).

ج- التطابق :

يقرّ ابن تيمية بأنّ الإمكان الذهني المنبني على الكليات يمثل فرضيات ليست متطابقة بالضرورة مع الوجود الخارجي، وهو ما يجعل هذه الكليات غير المتطابقة مع الخارج من جنس الخواطر والخيالات سيّما أنّها غير متقيّدة بقيد ثبوتي أو سلبى فيصعب بذلك إثباتها بدليل أي يصعب تصديقها وهو ما يتنافى مع مبادئ العلم الأساسية يقول ابن تيمية : "إنّ قولهم "العلم ينقسم إلى تصوّر وتصديق، وأنّ التصوّر هو التصوّر الساذج العريّ عن جميع القيود الثبوتية والسلبية" كلام باطن. فإنّ كلّ ما عري عن كلّ قيد ثبوتي سلبى يكون خاطرا من الخواطر، ليس هو علما أصلا بشيء من الأشياء، فإن يخطر بقلبه صفة لا ثبوتية ولا سلبية لم يكن قد علم شيئا (...) وكذلك إذا تصوّر بحر زئبق وجبل ياقوت فإن لم يتصوّر مع هذا عدمه في الخارج، ولا امتناعه، ولا شيء من الأشياء، كان هذا خيالا من الخيالات، ووسواسا من الوسواس، ليس هذا من

(1) الردّ على المنطقيين، ص. 67.

العلم في شيء، فإن تصوّر مع ذلك عدمه في الخارج كان قد تصوّر تصوّراً مقيداً بالعدم، لم يكن تصوّره خالياً من جميع القيود" (1).

الخلاصة من كلّ ذلك أنّ ابن تيميّة قد كشف من خلال إبرازه أهميّة المنهج التجريبي عن تهافت المنطق الأرسطي وعدم إفادته العلميّة باعتبار أنّه يتأسّس على التّصوّر والتصديق، وكلاهما منفصلان عن واقع التجربة والحسّ ومرتبّان بكلّيات ذهنيّة هي إمكانيات عريّة عن الدلائل التي تثبتّها لأنّها ليست متطابقة مع الخارج، وبالإضافة إلى ذلك فإنّ هذه التّصوّرات لا تحتاج إلى قوانين وقواعد لأنّ بعضها مركّوز في الطبائع ومن هذا المنطلق فإنّها تمثّل عند ابن تيميّة بديهيات يشترك فيها الناس، وهذا معنى قوله "إنّ ما ذكره من صور القياس ومواده مع كثرة النّعب العظيم، ليس فيه فائدة علميّة بل كلّ ما يمكن علمه بـ "قياسهم المنطقي" يمكن علمه بدون قياسهم المنطقي وما لا يمكن علمه بدون قياسهم لا يمكن علمه بقياسهم فلم يكن في قياسهم لا تحصيل العلم بالمجهول الذي لا يعلم بدونه ولا حاجة به إلى ما يمكن العلم به بدونه فصار عديم التأثير في العلم وجوداً وعدماً ولكن فيه تطويل كثير متعب، فهو مع أنّه لا ينفع العلم فيه إتعاب الأذهان وتضييع الزمان وكثرة الهذيان" (2).

فما هو صدق هذه الإشكاليّات في الفكر الإنساني عامة وفي بحوث المناطق الغربيين بصفة أخصّ ؟

II - المنهج التجريبي عند المناطق المحدثين :

لقد تطرّق عديد الدّارسين إلى تأثير المناطق الغربيين بأفكار ابن تيميّة ونوّهوا بفضلها في نقد المنطق الأرسطي وفي التأكيد على المنهج التجريبي المؤسّس على استقرار الظواهر العينيّة من ذلك ما ذهب إليه علي سامي النشار في كتابه "مناهج البحث عن مفكري الإسلام" من أنّ "ابن تيميّة قد سبق المنطقي الأنكلزي بوزانكيت وغيره من مناطق حين أعلنوا أنّ بديهيات البرهان الأساسيّة، أي قوانين الفكر المشهورة ليست بديهيات، وإنّما هي مسلّمات تستمدّ

(1) الرد على المنطقيين، ص. 101.

(2) نفسه، ص. 6.

من الخبرة والتجربة فالإنسان إذن يتوصل إلى القضية الجزئية قبل التوصل إلى القضية الكلية والقضية الكلية ليست إلا تعديدا لأفراد جزئية مندرجة تحتها والبرهان لا يعطي شيئا جديدا على الإطلاق بل فيه مصادرة على المطلوب" (1).

ولئن كانت مستندات اطلاع الغربيين على فكر ابن تيمية من الأمور المعوزة للباحث ذلك أن المناطق المحدثين لم يذكروا صراحة مصادر تفكيرهم أو وجوه استفادتهم لأسباب أيديولوجية تمت إلى الفوارق الدينية أو الإثنية أو العرقية، لئن كانت هذه المستندات قليلة فإن الباحث يمكنه بسهولة أن يكشف عن تردد المقولات في حلقة الفكر الإنساني لأنه لا وجود لثقافة مصقاة ومنقاة، وإنما الثقافات تبنى على التراكم والتلاحق والتصادم فهي وثيقة الصلة بغيرها من الثقافات لأن هذه الصلة هي عنوان حياتها وانعدامها إعلان عن موتها.

(1) مفهوم المعرفة عند المناطق التجريبيين :

يمكن أن تعتبر المدرسة التي تزعمها دافيد هيوم (David Hume) وبعده جيمس مل (James Mill) هي المدرسة التي تبنت المنهج التجريبي وبيّنت أهميته في المعرفة، فأوجدت بذلك علاقة بين الفكر والواقع الحسي واعتبرت أن المعرفة هي نسخ للانطباعات والأحاسيس التي تمثل وجهها من وجوه التجربة، يقول دافيد هيوم : "جميع الأفكار هي نسخ للانطباعات أي نسخ لجميع إحساساتنا وأهوائنا وانفعالاتنا كما تظهر لأول مرة في الروح" (2)، فإدراك الواقع لا يتم في مرحلة أولى إلا عبر الانطباعات الأولى في اتصالها بالظواهر، ويتبنى استيوارت نفس التعريف إذ يقرّ أن "كلّ ما يوجد في الذهن هو إحساسات ونسخ للإحساسات" (3) وعلى هذا الأساس فإن معرفة الحقائق عند استيوارت يمرّ عبر طريقين، فبعض الحقائق تعرف مباشرة بواسطة هذه

(1) النشار (علي سامي) : مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط. 1، القاهرة، 2008، ص. ص. 171-172.

2) Tiercelin Cloudine : La pensée- signe, études sur C. S Peirce (Editions Jacqueline Chambon, Nîmes France), p. 120 .

(3) نفسه.

الحقائق نفسها وهو ما يتجلى في موضوعات الحدس أو الوعي، إذ أن استيوارت يستعملهما بمعنى واحد ويرى أنه ليس من الضروري التمييز بينهما عكس ما ذهب إليه الميتافيزيقيون من أن الحدس هو المعرفة المباشرة التي يفترض تحصيلها من الأشياء الخارجية، بينما يقوم الوعي على معرفة ظواهر ذهن الذات، أما الطريقة الثانية لمعرفة الحقائق عند استيوارت فتعرف بواسطة حقائق أخرى، وهو ما يمثل موضوع الاستدلال، ولا يمكن الاستدلال إلا متى سبقت بمعرفة أمر ما قبلي هي إما معلومات أو مقدّمات أو مبادئ أولية أو نتائج مستخلصة.

إنّ الطريق الأول في تحصيل المعرفة عند ميل استيوارت لا يحتاج إلى منطق، وإثما يحتاج إلى التجربة وإلى معاينة الواقع وظواهره بواسطة الحواس والملاحظة والمقارنة والفرضيات ويصبح دور المنطق نافعا حسب استيوارت متى كان حكما على الملاحظة والفرضيات فهو يحكم ويقرّر ما إذا كانت التجربة تصون قواعدها وتبرّر ممارستها على وجه مقنع وهو بذلك لا يوفر لها الحجج والأدلة بل يعلمها اكتساب الشروط العامة التي تكون فيها الوقائع دليلا على وقائع أخرى أي بعبارة Mill "فإنّ المنطق هو علم العمليات العقلية الذي يفيد في تثمين البيّنة أو الحجّة أي يفيد الإجراء العام الذي يكمن في الانتقال من المعلوم إلى المجهول، كما يفيد عمليات ذهن الأخرى المساعدة لهذا الإجراء"⁽¹⁾، وفي نفس الإطار يندرج عمل المختصين في علوم الطبيعة من مسلمين وغيرهم إذ يذهب الحسن بن الهيثم (ت411هـ - 1020م) في مجموعة رسائله إلى أن المعرفة تنطلق أساسا من "استقراء الموجودات وتصقح أحوال المبصرات وتمييز خواص الجزئيات، ونلتقط باستقراء ما يخصّ البصر في حال الإبصار وما هو مطرد لا يتغيّر، وظاهر لا يشتبه من كيفة الإحساس ثم نترقى في البحث والمقاييس على التدرّج والترتيب مع انتقاد المقدّمات. والتحقظ من الغلط في النتائج ونجعل غرضنا في جميع ما نستقرّيه ونتصقحه استعمال العدل لا اتباع الهوى، ونتحرّى في سائر ما نميّزه وننقده طلب الحق لا الميل

1) Mill, John Stuart : Système de logique, (Pierre Margado, Editeur, Liège), Bruxelles, 1988, pp. 11-12.

مع الآراء" ⁽¹⁾، وهو ما سيؤكد كلود برنار فيما بعد إذ أن "المبادرة التجريبية حسب تقديره كلها موجودة في الفكرة، إذ هي التي تحرّض على التجربة، أما العقل والاستدلال فإتّهما لا يفيدان إلا في استخلاص نتائج هذه الفكرة وإخضاعها للتجربة" ⁽²⁾.

الخاتمة :

إنّ إسهام العلماء المسلمين في الحضارة العالمية أمر مؤكد لا يمكن لباحث نزيه أن ينفيه أو يشكك فيه إلا إذا كانت وراء هذه المواقف خلفيات أيديولوجية ظهرت تارة مع حملات الاستشراق وتارة أخرى في آراء المتعصّبين ديانة وانتماء وعرقا. ولئن تصدّى لهذه الحملات المهمشة لجهود العلماء المسلمين جمهور من الباحثين تراوحت دراساتهم بين التمجيد والغيرة على الدّين من جهة ⁽³⁾ وبين الحجّة وإثباتها حضاريا ومنطقيًا من جهة أخرى ⁽⁴⁾، فإنّ إثبات دور المسلمين علميًا وإسهامهم في النهضة الحضارية العالمية يبقى مطمحا تنتشه الدراسات الحديثة سيّما أنّ الأمر لم يقتصر على الدارسين المسلمين فحسب، وإلّا ساهمت بعض الدّراسات الغربية في الإشادة بهذا الدور والعمل على تحقيق المدونات والكشف عن المخطوطات لأنّ الأمر ليس موكولا لادّعاء غلبة حضارة على أخرى وإلّا هو أمر تتقاسم رسالته كلّ الإنسانية على مرّ العصور وفي كلّ الأقطار.

-
- (1) ابن الهيثم (الحسن) : مجموعة الرسائل، طبعة حيدر آباد الركن، 1327هـ، ص. ص. 5-6.
 - (2) برنار (كلود) : مدخل إلى دراسة الطبّ التجريبي، ترجمة محمود يعقوبي، دار صادر، بيروت، ص. ص. 20-23.
 - (3) النشار (علي سامي) : مناهج البحث عند مفكّري الإسلام، مذكور.
 - الغمري (عفاف) : المنطق عند ابن تيمية، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ط. 1، القاهرة، 2001.
 - (4) عبد الرحمان (طه) : تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، ط. 2، الدار البيضاء، (د. ت).
 - نظيف (مصطفى) : الحسن بن الهيثم، بحثوه وكشفوه البصرية، القاهرة، 1942.

إنّ نقد المنطق الأرسطي وإقرار أهميّة المنهج التجريبي لم يكونا حكرًا على الشكّاء والرواقيين، وإنّما تطوّرا مع الفكر الإسلامي بعد قراءة وتمحيص، ولم يكن الردّ على المنطق مغلقًا بتعصّب ديني مثلما أقرّ جولدتزيهر (Goldziher) في أعماله⁽¹⁾، بل هو ردّ مبنيّ على أسس معرفيّة إبستيميّة مغايرة في المنطلقات والنتائج، ما سيجعل المنهج التجريبي أساسا عند الغربيين وشرطا للمعرفة مثلما أقرّ ذلك سابقا ابن تيميّة وابن الهيثم وغيرهم من المسلمين.

(1) لمزيد التوسّع :

- الجلاصي (بثينة) : علاقة الفكر العربي الإسلامي بعلوم الأوائل من منظور استشرافي (جولدتزيهر نموذجًا)، مقال ضمن كتاب المستشرقون والدراسات العربيّة الإسلاميّة، أعمال المؤتمر الدولي الثاني المنعقد بكلية دار العلوم بالمنيا، مصر، أيام 4 و5 و6 مارس 2006، ج. 2، ص. ص. 545-561.

- Goldziher (Ignaz) : The attitude of Orthodox Islam Toward the oncient Sciences in Studies on Islam, New-York, oxford university, Presses, 1981, pp. 206-207 .